جامعة منتوري، قسنطينة 1
كليـــــــــة الآداب واللغات
قسـم الآداب واللغة العربية

الأستاذة أمال حليتيم
amelhalitim19@gmail.com

السنة الأولى ماستر
أدب عربي قديم
مقياس : تحقيق النصوص
الفوجان 3 و 4

من كتاب

جمع نسخ المخطوط

إذا قرر الباحث أن يشرع في جمع نسخ المخطوط فمعنى ذلك أنه قد صحَّ عزمه على تحقيق هذا المخطوط. وينبغي أن يتأكد من أنه لم يسبق له أن حُقِّق تحقيقاً علمياً، فإن كان قد حقق تحقيقاً غير دقيق بأن يكون الباحث قد عثر الآن على نسخة بخط المؤلف وكان التحقيق السابق يعتمد على نسخة سقيمة، أو أن ما طُبع من الكتاب محققاً اعتُمِد فيه على نسخة ناقصة، أو أن المحقق الأول لم يكن رجل علم واختصاص فكان في تحقيقه أخطاء فاضحة تعود إلى كثرة التصحيف والتحريف أو إلى اعتماد نسخة سقيمة بمثابة الأمّ. أقول: فإن كان التحقيق السابق يندرج تحت صورة من هذه الصور أو كان مطبوعاً بدون تحقيق فإنَّ عليه أن يشمِّر عن ساعد جمع النسخ.

ولا يجوز للباحث أن يشرع في التحقيق قبل أن يخوض غمار التنقيب عن مظانّ نسخ الكتاب الذي يفكر في تحقيقه، وهذه المظان متناثرة في أكثر من مكتبة من مكتبات العالم. وبعد أن يتعرَّف على هذه النسخ من خلال مصادر متعددة ـ سوف نشير إليها ـ يبدأ محاولات الوصول المباشر إلى مجموعها. وليس تحقيق كتاب معين أمراً يتصل دائماً برغبة الباحث. فقد يقول أحد الباحثين: لماذا لا أحقق كتاب «الفرخ» للجرميّ؟ ويمضي فيبحث عنه، فيتبيَّن له أنه من الكتب التي ضاعت في بطون المجهول. وقد يقول باحث ثان: سوف أحقق كتاب «مشكل مكي» الذي كان أبو حيان يحاوره كثيراً في البحر، ثم يتبيَّن له أنه حقق أكثر من مرة. وقد يقول باحث ثالث:

سوف أحقق كتاباً للكسائي سمع أن منه نسخةً في تركيا، ثم يتبيَّن له أن الكتاب ليس للكسائي. وقد يشير أحد الفهارس إلى وجود نسخة أو أكثر في مكتبة خاصة أو عامة لكتاب له أهميته فتفشل جهود الباحث ومَنْ يساعدونه في الوصول إلى النسخة، فقد قيل له إنها مفقودة أو أن المكتبة مغلقة أو لأسباب غيرها.

نخلص من هذا كله أن على الباحث أن يطمئن إلى توفُّر النسخ أولاً ثم يدرس إمكان الوصول إليها ثانياً، وعليه أن يتأكد بعد ذلك من أنها تمثّل فعلاً الكتاب الذي يريده لأن هناك أوهاماً كثيرة تعتري كثيراً من النسخ سببها جهل النُّسَّاخ أو غير ذلك مما سنوضحه قريباً إن شاء الله. ومن هذا المنطلق لا بدّ أن نؤكد أن مثل هذه العقبات المختلفة واردة في طريق الباحث، فإذا أتمَّ دراستها وتجاوزها فإنه قد يجد إحدى نسخ الكتاب في بلده فيشرع في التحقيق معتمداً عليها، وحجته في ذلك أنه يريد أن يكسب الوقت، وهذا قد يكلفه كثيراً من جهد ضائع ولا سيما إذا كانت النسخة سقيمة مليئة بالتصحيف والتحريف، وذلك لأنه قد تأتيه نسخة ثانية تلغي جهوداً كبيرة خاضها الرجل لمعرفة حقيقة تلك الكلمة المحرفة التي أتعبته أياماً وهو يبحث عن تصحيحها في بطون كتب الفن الذي يعمل فيه. وأذكر أن باحثاً سجَّل رسالة الدكتوراه في جامعة القاهرة في تحقيق أحد مصادر النحو، وشرع في التحقيق معتمداً على نسخة الأحمدية، وأَتْعَبَتْه تلك النسخة التي كانت في غاية الاضطراب والتحريف، وبعد سنة كَلَّ الرجل منها فسافر إلى تركيا، وعاد ليحمل معه نسخة المؤلف «التي قطعت قول كل خطيب» فضاعت معها جهود سنة كاملة. إن مجموع هذه العوامل تجعل الباحث يتريث مباشرةَ التحقيق.

ويكون السؤال عن مظانّ نسخ المخطوط وفق المعالم التالية:

١ ـ يراجع كتاب الدكتور فؤاد سزكين «تاريخ التراث العربي» وهو عالِم تركي مسلم يحاضر في إحدى الجامعات الألمانية، وقد حصل أخيراً على جائزة الملك فيصل العالمية. وكتابه يعرض نتاج الفكر الإسلامي في

عشرة أجزاء، يتناول كل جزء عِلْماً من العلوم، وقد بدأ كتابه بذكر فهرست المكتبات ومجموعات المخطوطات الإسلامية في العالم، وشرع بعلوم القرآن، فتحدث عن كتب القراءات في العصور التاريخية المختلفة إلى سنة ٤٣٠هـ، ثم تحدث عن كتب التفسير ثم الحديث ثم كتب الفقه فالعقائد فالتصوف، وكان سزكين يبدأ بمقدمةٍ عن العِلْم الذي سيؤرِّخ له ويتحدث عن أعلامه ويذكر ترجمةً للعلَم ويعقبها بذكر مصادر هذه الترجمة، ثم يعرض آثاره، وهذا الذي يُهُّمنا في هذا المجال، حيث يذكر مظانَّ كل أثر، فإن كان مطبوعاً أشار إلى ذلك، وإن كان مخطوطاً أشار إلى أماكن توزُّع نسخه في مكتبات العالم. وقد ترجم الجزء الأول من الكتاب في مجلدين الدكتور فهمي أبو الفضل وراجعه الدكتور محمود فهمي حجازي، وضمَّ علوم القرآن والحديث والتاريخ والفقه والعقائد والتصوف منذ نشأة هذه العلوم حتى سنة ٤٣٠. وأمَّا الأجزاء التالية التي لم تترجم بعدُ فهي كما يلي:

الجزء الثاني: الشعر.
الجزء الثالث: الطب والبيطرة.
الجزء الرابع: الكيمياء والنبات والزراعة.
الجزء الخامس: الرياضيات.
الجزء السادس: علوم الفلك.
الجزء السابع: علوم اللغة والنحو والبلاغة.
الجزء الثامن: في علم الفلسفة والمنطق والاجتماع.
الجزء التاسع: في علم الجغرافية والفيزياء والموسيقى.
الجزء العاشر: ويشتمل على نشأة العلوم الإسلامية وأثر العلماء المسلمين في أوروبا في المجالات كافة. وقد كتب سزكين هذه الموسوعة باللغة الألمانية. واسم الكتاب كاملاً:

Fuad Sezgin Geschichte des arbischen schrifttums
Leiden 1967.

٢ ـ يراجع كتاب بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» وهو أيضاً باللغة الألمانية، وقد يظن القارىء أن الكتاب خاص بقضايا الأدب العربي وتاريخه، والحقيقة أنه يشمل كل ما كُتب باللغة العربية من المدوَّنات الإسلامية، وهو يذكر ما طُبع من التراث أو ما يزال مخطوطاً منه، ويذكر مظانَّ المخطوطات وهو الذي يعنينا في هذا المجال. وقد ظهر الكتاب في مجلدين عام ١٨٩٨م، ثم صدرت عام ١٩٣٧م المجلدات التكميلية الثلاثة. ويقسم المستشرق بروكلمان مادة كتابه إلى الأجزاء التالية:

أولاً: الأدب العربي من البداية إلى العصر الأموي.
ثانياً: الأدب العربي من عام ٧٥٠ إلى ١٢٥٨.
ثالثاً: تدهور الأدب العربي من المغول إلى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨.

أما الجزء التكميلي فيعالج الأدب العربي الحديث. ثم عرض سجل المؤلفين وعناوين الكتب. وقد ترجم الأجزاء: الأول والثاني والثالث الأستاذ عبد الحليم النجار، كما ترجم الأجزاء: الرابع والخامس والسادس الدكتور السيد يعقوب بكر والدكتور رمضان عبد التواب.

٣ ـ فهارس المكتبات: لقد تمَّت فهرست معظم المكتبات التي تضم قوائم المخطوطات في العالم، ولا تخلو مكتبة عامة أو خاصة من هذه الفهارس، وذلك من مثل:[1]

ـ فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق.
ـ فهرست مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل.
ـ فهرست مخطوطات المجمع العلمي العراقي في بغداد.
ـ فهرست مخطوطات جامعة الرياض.
ـ فهرست مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة الملك عبد العزيز.

(١) انظر: تحقيق التراث للدكتور الفضلي ٦٢ ـ ٩٩.

ـ فهرست مخطوطات دار الكتب المصرية.
ـ فهرست مخطوطات الأحمدية.
ـ فهرست المخطوطات العربية في بلغاريا.
ـ نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا.
ـ المخطوطات العربية بمكتبة الفاتيكان.
ـ فهرست المكتبة المركزية بجامع طهران.
ـ منتخبات من نوادر المخطوطات بالخزانة الملكية المغربية.
ـ فهرس الخزانة التيمورية بالقاهرة.
ـ فهرست مخطوطات مكتبات الأزهر.
ـ فهرس وصفي لمخطوطات مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.
ـ المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي.

٤ ـ فهارس المايكروفلم: نشطت بعثات الجامعات العربية والإسلامية إلى مظانّ المخطوطات في العالم، حيث كانت هذه البعثات تصوّر النفائس التي تعثر عليها. وتحتفظ الجامعة الإسلامية وجامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة الملك سعود وجامعة الملك عبد العزيز في جدة بمئات الأفلام من هذه النفائس. ويستطيع الباحث أن يراجع هذه الفهارس لعله يجد طلبه من نسخ المخطوط الذي يفكر في تحقيقه.

٥ ـ فهارس معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية: وهو معهد يتبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المتفرعة عن أقسام جامعة الدول العربية. ومقرُّه الآن في الكويت وعنوانه:

الصفاة ـ الكويت ص. ب: ٢٦٨٩٧
وهاتفه: ٤٦٩٠٨٨ ـ ٤٦٩٠٨٩

وقد صوّرت بعثاته آلاف المخطوطات من مكتبات كثيرة منتشرة في جميع أنحاء العالم، ويستطيع الباحث أن يراسل المعهد ليتعرَّف على نسخ مخطوطه.

٦ ـ الاتصال الشخصي بأهل العلم: إن صلة الباحث بأهل الاختصاص الذي يعمل في دائرته لها فائدة كبيرة، فهم يضيفون إلى معلوماته آفاقاً جديدة ويخبرونه بما حُقِّق وما لم يحقق من المخطوطات التي يتتبّع أخبارها، وقد يكون لأحدهم تجربة معينة مع مخطوط أو مكتبةٍ تضم المخطوطات العربية، فيقدم للباحث معلومات ثمينة تصحح بعض الخبرات في هذا الجانب.

مُلاحظات حول جمع النسخ

١ ـ قد تقدم الفهارس معلومات ليست دقيقة، وذلك لأن مصنفها لم يكن رجل علم أو أنه وقع في أوهام النُّسَّاخ فاعتمد على ما كُتِب على الورقة الأولى من المخطوط؛ وعلى هذا فلا تستطيع أن تطمئن إلى بُغْيَك حتى تصل إلى الكتاب نفسه أو يخبرك عنه ثقة ثبت.

٢ ـ قد لا تكون فهارس مكتبة من المكتبات شاملة فينقصها الشيء الكثير كأن تكون الفهرسة قد تَمَّتْ لجانب من جوانبها أو لإحدى خزائنها.

٣ ـ لا تعتمد على فهرس الفهرس الذي بين يديك، فإذا كنت مثلاً تبحث عن كتاب «شرح الجمل» لابن عصفور فإنك ستنظر في حرف الشين فلا تجده مع أنه وارد في حرف الجيم، حيث إن منظم الفهرست أسقط كلمة «شرح» لسبب من الأسباب. وإذا نظرت إلى فهرس أعلام الفهرس وكنت تبحث عن المالقي فقد لا تجده مع أن منظم الفهرست وضعه تحت اسمه الحقيقي: أحمد بن عبد النور. وقد يُدرج مصنف الفهرست كتابك وهو في النحو تحت قائمة مخطوطات التفسير مثلاً. وتستطيع أن تتغلب على هذه الصعوبات بأن تستعرض على نحو سريع عناوين الكتب فقط في الفهرس الذي بين يديك، وهو لن يستغرق أكثر من ساعة على أكثر تقدير.

٤ ـ قد يكتفي أحد الباحثين بقراءة إحدى نسخ الكتاب من المايكروفلم ولا يُكَبِّرها فهل يجوز له ذلك؟ القراءة بالمايكروفلم على ضربين:

أ ـ إن كان الكتاب مساعداً في التحقيق: فمن الممكن في هذه الحال أن يقرأه الباحث بالمايكروفلم عن طريق جهاز التكبير كأن ينوي أن يُخَرِّج منه نقلاً أو يضبط بيتاً من الشعر، أو يطَّلع من خلاله على نسبة بعض القراءات التي وردت في كتابه إلى أصحابها.

ب ـ وإن كان الفيلم نسخةً من كتابه فمن الصعب أن يعتمد على المايكروفلم وذلك لأن الباحث سيُتْعِبُ عينيه ولا يستطيع مداومة الإبصار أمام قوة الضوء ودقة الكتابة، وسوف يضطر إلى إطفاء أنوار الجهاز فهو غالباً سيصبح حاراً متوهجاً بعد استعماله بفترة قصيرة، ولن يستطيع أن يضع علامة على النقطة التي وصل إليها وهو يريد أن ينقل بصره ما بين الفيلم وأوراقه.

ترتيب النسخ

إذا كانت مرحلة جمع النسخ تعني الحصول على مادة العمل الأولية فإن مرحلة الترتيب تعني استثمار هذه المادة وتوجيهها للوصول إلى نص المؤلف الأول. وتحتاج مرحلة الترتيب إلى خبير بصير لأن عليها إقامة العمل كله.

كيف يصل القارىء إلى هذا النص مثلاً وقد ضلَّ المحقق طريقه فساقَتْه نظراته السريعة في المخطوطات التي جمعها إلى اتخاذ قرار يفيد أن نسخة (أ) ستكون الأمَّ، ولم يَدْر أن نسخة (ب) مثلاً أفضل منها بكثير. وكيف يصل القارىء إلى نص المؤلف وقد رأى المحقق ـ وهو غير متمكن في تخصصه ـ أن نسخة (ج) ليس لها قيمتها لأنها عنده بعيدة عن زمن المؤلف مثلاً مع أنها كالمنقولة عن نسخة المؤلف فكاتبها رجل ثبت. إن النظرة السريعة وضعف التمكن في الاختصاص والترفع عن سؤال أهل العلم والثقة الزائدة بالإمكانات الذاتية كل أولئك أسباب ستجعل الباحث يسير على ضلال من أمره، ومن هنا كان على الباحث أن يُعْنَى بضرورة التريث في اتخاذ أي قرار يتصل بمنزلة النسخ.

يضع المحقق أمامه ما يَسَّر الله له من نسخ تمثِّل كتابه الذي صحَّ عزمه على تحقيقه، ويقوم بفحصها فحصاً ميدانياً دقيقاً، وذلك ليصل إلى ترتيبها وإعطائها منزلتها التي تستحقها. ويرى علماء التحقيق أن الباحث سينتهي إلى النتائج التالية:

١ ـ العثور على نسخ متعددة تختلف من حيث الأهمية.

٢ ـ العثور على نسخ كثيرة للمخطوط.
٣ ـ العثور على نسخة يتيمة.

وسوف نُعَرِّف بمهمة الباحث في كل نتيجة وصل إليها.

فإذا عثر على نسخ متعددة تختلف من حيث الأهمية وضع أمامه هذه النسخ، وبدأ بعملية الترتيب لإثبات منازلها. والغاية من هذه العملية اعتماد نسخة منها لتكون أُمًّا يثبتها في المتن ويعتقد أنها أقرب إلى ما يريده المؤلف، ثم يذكر في الحاشية اختلافات النسخ ويشرح في مقدمة التحقيق الأسباب التي جعلته يتخذ قراره باعتمادها أُمًّا، وسوف يَصِلُ من خلال هذه المرحلة إلى معرفة قيمة النسخ الأخرى من أجل أن يعرف مقدار ما سيأخذه منها وما يفيده إن حدث سقط أو خرم في الأمّ.

يضع الآن النسخ أمام عينيه ويسير في تسمية منازلها وإثبات رموزها وفق المراحل التالية:

١ ـ يقرأ أولاً الصفحة الأولى والأخيرة من كل نسخة، حيث إن هاتين الورقتين لهما أهمية كبيرة في تقدير الترتيب والمنزلة، فإن النسخة التي كتبها المؤلف بيده عادة لا تبدأ بقول النساخ: «قال الإمام الجليل العلاّمة فريد عصره ووحيد دهره» وإنما تبدأ بقول المؤلف: «يقول العبد الفقير إلى ربه: لمّا رأيت. . .» وكذلك الخاتمة، يقول النساخ عادة: «وتمَّ نسخ هذا الكتاب على يدي فلان الناسخ في سنة كذا» وتختلف هذه السنة غالباً عن سنوات حياة المؤلف ووفاته. أمَّا نسخة المؤلف فيقول في خاتمتها: «كتبها بيده العبد الفقير إلى ربه» ويذكر اسمه الصريح واسم أبيه، ويذكر سنة الكتابة، وتكون قبل وفاته بسنوات، ويكون الباحث قد حفظ بدقة سنة وفاة الشيخ، فهذا عنصر رئيس من عناصر معرفة نسخة المؤلف. وثمة عنصر ثانٍ وهو أنه يُفَضَّل أن يكون إلى جانب المحقق صورة عن مخطوطات للمؤلف كتبها بخطه، فيقرأ فيها، وذلك لمعرفة نوع الخط وطريقته التي كان المؤلف عليها، فيقارن بين المخطوط الذي يريد تحقيقه

والمؤلفات الأخرىٰ، فقد تعطي طريقة الخط ضوءاً في معرفة نسخة المؤلف. وبعد ذلك يطالع الباحث في المخطوط ويقرأ صفحات مختلفة، وذلك لملاحظة التصحيف والتحريف، وضبط المشكل من الكلمات، والسقط، ولا نعني به أن تسقط ورقات من المخطوط فهذا أمرٌ وارد في أية مخطوطة، وإنما نعني به سقط الأسطر والكلمات وذلك لأن الناسخ العالم يراعي تسلسل المعارف والمعاني وهو يكتب، أمَّا الجاهل فلا يدري شيئاً عن تلك المعارف والمعاني فتسقط الأسطر منه وتفلت كثير من الكلمات، وذلك من قبيل انتقال النظر. هذه هي عناصر معرفة نسخة المؤلف: تاريخ النسخ، وما كُتب في المقدمة والخاتمة، ونوع الخط بالموازنة مع خطوط المؤلف في مؤلفاته الأخرىٰ، والتصحيف والتحريف وضبط المشكل والسقط،فإن قيل: ألا يكفي تاريخ النسخ؟ فالجواب أنه لا يكفي وذلك لأنَّ بعض النسَّاخ قد ينسخُون من نسخة المؤلف فيحافظون على نصها الحرفي من أول المخطوط إلى آخره فيتوهّم الباحث أنها فعلاً بخط المؤلف وليست كذلك، ومن هنا تأتي العناصر الأخرىٰ لتكمل المعرفة وتجعلها تستقر.

فإن كانت النسخة التي بين يدي الباحث نسخة المؤلف فهذا فضل من الله كبير، فإن توفَّر معها نسخة أخرى فهل نشير في الحاشية إلى اختلاف النسخ؟ نحن لا نرى أية فائدة من إثبات اختلافات النسخ أو إثبات ما تختلف به نسخة المؤلف عن غيرها، وذلك في حواشي الكتاب بعد إعداده للطباعة وإجلاء الإفادة منه، وذلك لأن مثل هذه الاختلافات إنما يذكرها المحقق لغرض مهمٍّ وهو المحافظة على ما وصل إليه من النسخ التي يعمل فيها، وإنْ هو إلا مجتهد يثبت في المتن ما يراه مستقيماً يعطي لكتابه الغرض المنشود، ومن هنا كان إثبات اختلافات النسخ في نصوص ضاعت منها نسخة المؤلف وسيلة لتقويم ما بقي من النسخ الأخرىٰ واختيار أقرب ألفاظٍ يرى المحقق أنها من المؤلف، أمَّا نحن فبين أيدينا نسخة بخط المؤلف فهل ثمة فائدة من شحن الكتاب

بهوامش طويلة عريضة؟! وليت شعري ما كانت الهوامش غاية تنشد لذاتها، وهل ثمة أمرٌ أثقل على القارىء من أن ينقل بنظره بين آونة وأخرىٰ إلى الهامش ليقرأ كيف رسم هذا الناسخ تلك الكلمة، وكيف قرأ هذا الشاهد، أو يقرأ تنبيهاً من المحقق أن ناسخاً آخر قد أسقط سطراً أو سطرين؟.

على أنه لا يُفْهم من هذا إهمال النسخ الأخرى. إن الحصول عليها يُعَدُّ أمراً من مصلحة الكتاب ذاته فإنَّ عليه أن يضعها أمامه وهو يسير في قراءة الكتاب، يستعين بها كلمة كلمة، فقد يرى رأياً في قراءة كلمة من الأصل يحسبها هي مقصود المؤلف وليست كذلك، وعندما يعود إلى النسخ الأخرىٰ يجد أن منها مَنْ اجتهد في قراءة تلك الكلمة اجتهاداً أفضل من اجتهاده فيصوّب ما يراه هذا الناسخ حيث إن رَسْمَ المؤلف يحتمل ذلك أكثر مما ذهب إليه الباحث، وقد ذكرنا قبلاً أنه يقوم بالمقابلة بين النسخ المختلفة، وحصولُه على نسخة المؤلف لا يُسْقِطُ أبداً هذه المهمَّة الضرورية على كل حال، كما أنه سيفيد من هذه النسخ عندما يحدث أن تسقط بعض أوراق الكتاب، أو أن التصوير عن الأصل قد يُسْقِط بعض الكلمات، أو أن ثمة خَرْماً يعتري بعض الصفحات فيأتي على بعض الكلمات، وهنا يذكر الاختلافات بين النسخ في الحاشية للغرض الذي أشرنا إليه: وهو أن يعرض على القارىء ما ذكرته النسخ لتحقيق الهدف المنشود من المقابلة والتحقيق.

ولكن هل نسخة المؤلف هذه هي آخر صورة ارتضاها لكتابه؟ يقول الدكتور المنجد[1]: «إن كثيراً من العلماء يُخْرِجون تواليفهم أول الأمر على شكلٍ ثم يزيدون فيها أو ينقصون منها، فتاريخ دمشق لابن عساكر له نسختان: جديدة في ثمانين مجلدة وقديمة في سبع وخمسين، ولكتاب وفيات الأعيان نسختان، ولكتاب الروضتين نسختان: قديمة وجديدة هي المعتبرة. والذين يترجمون للمؤلفين ينصُّون أحياناً على تطور

(١) قواعد تحقيق المخطوطات ١٣.

مؤلفاتهم، أو أن المؤلف نفسه يثبت ذلك في ذيل آخر نسخة كتبها، فلا بدَّ أن ينتبه المحقق إلى ذلك ويعتمد على النسخة الأخيرة من التأليف».

ومن أمثلة المسودات ما ذكره صاحب الفهرست[١] «أن ابن دريد صنع كتاب أدب الكاتب على مثال كتاب ابن قتيبة ولم يجرده من المسودة». وما ذكره صاحب البغية[٢] «إن لابن هشام شرح التسهيل وهو مسودة».

ومن أمثلة إخراج الكتاب أكثر من إخراج ما جاء في الفهرست[٣] «جمهرة ابن دريد مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان لأنه أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه، فلما اختلف الإملاء زاد ونقص، والباقية التي عليها المعوَّل هي النسخة الأخيرة، وآخر ما صحَّ من النسخ نسخة أبي الفتح عبد الله بن أحمد النحوي لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه». وفي أخبار المفضل الضبي من «الفهرست» ذكر «أنه عمل للمهدي الأشعار المسمَّاة بالمفضليات، وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي».

فإن لم تتوفر إلا المسودة ـ وتُعْرَف من الإضافات الجانبية وكثرة التعديل والمسح الذي يقوم به المؤلف ـ نظر المحقق: هل ثمة إضافات وجدها في النسخ الأخرىٰ المعتمدة؟ وهل ثمة اختلاف في الآراء بينها وبين النسخ الأخرىٰ المعتمدة؟ فإن كان الجواب بالنفي فإنَّ الحكم لا يتغير، حيث يمضي فيعتمد على نسخة المؤلف هذه من دون أن يشير إلى اختلاف النسخ. وإن كان الجواب بالإثبات فإنه يثبت ما وجده في النسخ الأخرى ويضعها بين معقوفين ويشير في الحاشية إلى ذلك، ويعقد باباً في المقدمة ليفصِّل في هذه الظاهرة، وأما إثبات اختلافات النسخ: فإن كان هناك

(١) الفهرست ٩٢.
(٢) بغية الوعاة ٢/٦٩.
(٣) الفهرست ٩١.

اختلافات جوهرية لها أدنى قيمة بين مسودة المؤلف والنسخ المعتمدة أثبت في المتن ما قاله المؤلف وأثبت في الحاشية ما قالته النسخ المعتمدة الأخرىٰ. وإن توفّرت المبيضة مع المسودة أثبت المبيضة وذكر في الحاشية ما تختلف به عن المسودة.

٢ ـ فإن لم تتوفر النسخة التي كتبها المؤلف فما الأمُّ التي سيعتمدها في المتن؟ إنها هي النسخة التي قرأها المصنف بنفسه أو قُرِئت عليه. وجرت العادة أن نرىٰ تحريراً فعلياً بذلك على النسخة.

٣ ـ وإن لم يتوفر ذلك يعتمد المحقق النسخة التي أثبت ناسخها في آخرها أنه نقلها عن نسخة المؤلف أو أنه نقلها عن نسخة نُقِلت عن خط المؤلف. والباحث في هذه المرحلة ينبغي أن يكون دقيقاً في تقديم هذه النسخ، لأنه قد يحدث هذا فعلاً فيتمّ النقل عن نسخة المؤلف أو عن نسخة نقلت عنه، ولكن كاتبها ليس برجل علم فيقع في أخطاء كثيرة، وهذا أمرٌ يبقىٰ نادراً ولكنه محتمل الوقوع. اطلب مثلاً من ولدك في المرحلة الابتدائية أن ينقل لك مقالاً عن نشأة النحو تريد أن ترسله إلى إحدى المجلات المتخصصة وسوف تلاحظ أنه سيقع في بعض الأخطاء مع أنه ينقل المقال الذي هو بخطك، أنت في هذا المثال المؤلف وهو الناسخ الذي ليس برجل علم. فإن لاحظ المحقق ذلك وهذا يبدو له في كثرة التصحيف والتحريف والسقط الذي هو من قبيل انتقال النظر والخطأ في الضبط انتقل إلى إلغاء الترتيب الثالث وقدَّم عليه الترتيب الرابع.

٤ ـ وهي النسخة التي كتبها الناسخ العالم المعروف في منزلته العلمية ولو لم تكن منقولة عن خط المؤلف.

٥ ـ فإن لم يتوفر ذلك كله نعتمد على النسخة التي كانت قريبة من عصر المؤلف وعليها سماعات، وهي ما يُسَجَّل على النسخة من توثيق لها يُعْرَف بالإجازة، والمقصود منها توثيق النسخة وتمثيلها لحقيقة مضمون

الكتاب كما أراده المؤلف[١]، وهذه الإجازة تكشف عن قيمة المخطوط وصحة تاريخه وتدل على التثبُّتِ العلمي الذي كان عليه السلف. ونوعا الإجازة هما:

١ ـ الإقراء: وهو أن يقوم شخص بقراءة الكتاب على المؤلف أو غيره وليس ثمة آخرون يشاركونهما.

٢ ـ السماع: وهو أن تكون قراءة الكتاب في مجلس آخرين يستمعون للقراءة بالإضافة إلى القارىء ومَنْ معه.

ويرى الدكتور المنجد[٢] أنها في المخطوطات القديمة على ثلاثة

١ ـ إقرار أحد المصنفين بخطه يفيد بأن طالباً سمع عليه كتابه.

٢ ـ إقرار أحد الطلاب بسماع كتاب على مصنفه.

٣ ـ إخبار بالسماع على شيخ غير المصنف.

ومراعاة العنصر الزمني له فوائده، فكلما كانت النسخة قريبة من المؤلف فإن أخطاءها سوف تَقِلُّ. ولنعد إلى المثال السابق: فإذا كلّفت لك ولداً ثانياً بأن ينقل المقالة نفسها عن خط أخيه، ثم كلفت ولداً ثالثاً لينقلها عن الخط الثاني فإنّ ما كتبه الولد الثالث سيكون أكثر تصحيفاً وتحريفاً مما كتبه الأول، مع العلم أن الجميع متساوون في الثقافة، فإذا توفّر للنسخة قرب العنصر الزمني وأضيف إليها السماعات كان ذلك المختار. غير أن مراعاة العنصر الزمني يبقى محفوفاً بالحذر فإن كانت أخطاؤها فاضحة منتشرة فإنك ستضرب عنها صفحاً، ولي تجربة في تحقيق «رصف المباني» للمالقي، حيث إن النسخة التي حققت الكتاب عليها كان تاريخ نسخها سنة ٧٤١ هـ، وسنة وفاة المؤلف

(١) انظر: إجازات السماع في المخطوطات القديمة: مجلة معهد المخطوطات مجلد ١ ج ٢ ص ٢٤٠.

(٢) المقال السابق ٢٣٤.

٧٠٢ هـ ولكنها كانت في غاية السقم والضعف تصحيفاً وتحريفاً وسقطاً مع أنها قريبة من عصر المؤلف.

ومعرفة العنصر الزمني يكون بالتاريخ المسجَّل عليها في الخاتمة وعادة يهتمُّ النسَّاخ بإثبات تاريخ نسخها، ولكن قد يحدث أن تسقط الورقة الأخيرة أو يحدث شطب على التاريخ، فيحاول الباحث أن يدرس الورق والحبر والخط للوصول إلى قرينة تضيء له تاريخ النسخ إضاءة قريبة، ومن المفيد أن نعلم أن كثرة الخروم وآثار الحشرة لا تدل على قِدمِ المخطوطة، فكم من مخطوطة قديمة تراها خالية من الخروم والبِلَىٰ، وكم من مخطوطة حديثة تراها مليئة بذلك.

٦ ـ النسخة التي كُتِبَتْ بعد عصر المؤلف وعليها سماعات.

٧ ـ النسخة التي كُتِبت بعد عصر المصنف وليس عليها سماعات.

٨ ـ النسخة المجهولة التاريخ.

٩ ـ النسخة السقيمة. والعمل فيها صعب محفوف بالحذر، حيث إن المنطلق في تحقيقها أن يشك المحقق في كل كلمة يقرؤها وذلك لأن كاتبها ليس برجل علم، ويظهر هذا في كثرة التصحيف والتحريف ولا سيما في الغريب والشعر، وفي السقط الناشىء عن انتقال النظر حيث إن الناسخ لا يعي ما ينسخه، وفي الضبط والتصرف الذاتي الذي يزيد من رداءة النسخة فيفشو فيها الاضطراب، ولا سيما إذا كان ينقل عن نسخة تضم إضافات جانبية فيضلُّ في معرفة مكانها الحقيقي فيجتهد وهو الجاهل الغبيُّ.

ونود لو نعرض نماذج مما يُسَجَّل عادةً على المخطوطات القديمة مما يشير إلى منزلتها وقيمتها:

ـ نسخة فيض الله من كتاب «الممتع في التصريف» لابن عصفور. قال المحقق الدكتور فخر الدين قباوة في وصفها[1]: «قد كان أبو حيان

(١) الممتع ١/٨.

النحوي تملك هذه النسخة من قبل، وحملها معه إلى القاهرة حيث قابلها قراءة بنسخة شيخه رضي الدين محمد بن علي الأندلسي، وقد أثبت هذه المقابلة في ختام النسخة كما يلي: «قابلت جميع هذا الكتاب مع شيخنا الإمام اللغوي الحافظ حجة العرب أوحد العصر رضي الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الأندلسي الشاطبي. قاله كاتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان النفزي الأندلسي الجياني نزيل القاهرة...». يضاف إلى هذا أن أبا حيان عارض قسماً من هذا الكتاب بنسخة بخط ابن عصفور نفسه وصوَّب بعض العبارات نقلاً من تلك النسخة، وعارض أبو حيان هذا الكتاب أيضاً بنسخ أخرى منها: نسخة ابن الزبير، نسخة ابن الخفاف، نسخة الخزرجي، نسخة الكرماني.

- نسخة مكتبة يني جامع من كتاب «شرح جمل الزجاجي» لابن عصفور قال المحقق الدكتور صاحب أبو جناح في وصفها[1]: «وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها قوبلت على الأصل الذي نقلت عنه كما هو مدوَّن على حواشي كثير من صفحات الكتاب وبخط غير خط الناسخ كما كتب على الحاشية اليمنى من ظهر الورقة ٢٥٦ وبخط غير خط الناسخ أيضاً ما يلي: «بلغ مقابلة، فلله الحمد والمنة على نسخة المصنف».

- نسخة كوبريلي من كتاب «القطع والائتناف» للنحاس. قال المحقق الدكتور أحمد خطاب العمر في وصفها[2]: «تأتي قيمتها لتقدمها على النسخ الأخرى تاريخاً وأنها مقروءة ومصححة من محمد بن نصير على الشيخ أبي بكر يحيى بن سعدون المتوفى سنة ٥٦٧هـ القارىء النحوي».

- نسخة الرضوية من كتاب معاني القرآن للأخفش. ورد في خاتمتها[3]:

(١) شرح الجمل ١/٧٢.
(٢) القطع والائتناف ٤٤.
(٣) معاني القرآن ١١٥.

«قال لنا أبو عبد الله اليزيدي رحمه الله «عرضنا هذا الكتاب من أوله إلى آخره على أبي جعفر أحمد بن محمد اليزيدي عمي وذكر أنه عرضه على الأخفش، وفرغنا من عرضه يوم الأحد سلخ المحرم سنة ٢٥٣هـ».

النتيجة الثانية: أن يعثر المحقق على نسخ كثيرة للمخطوط، وليس منها نسخة بخط المؤلف. يقوم المحقق بتصنيفها إلى فئات[1]: فالفئة (أ) مثلاً هي ثلاث نسخ نقلت عن بعضها فتماثلت أو تكاد، والفئة (ب) نسختان نقلت الأولى عن الأخرىٰ فتماثلت أو تكاد. والفئة (ج) أربع نسخ نقلت ثلاثة منها عن واحدة فتماثلت أو تكاد. ثم يختار من كل فئة مخطوطة تكون قد حازت على أكثر الصفات التالية: القِدم، وضوح الخط، الضبط. ولا يدخل في هذا التصنيف المخطوط الذي عليه توثيق أو سماعات، أو يكون ناسخه معروفاً بالعلم. وقد يكون ثمة نسخ كثيرة ومن الصعب أن يُصَنِّفَها إلى فئات فإنَّ عليه أن يختار منها ما يتحقق فيه أكبر قدرٍ من الصفات التالية: القِدَم، السماعات والتوثيق، الناسخ العالم، الكاملة، قلة الخروم والسقط، قلة التصحيف والتحريف. ومن أمثلة هذه المخطوطات الكتب الدراسية والمتون.

النتيجة الثالثة: النسخة اليتيمة. فإنْ كانت سقيمة فما الحدود التي يتدخل المحقق من خلالها؟ إنه يستعين بالكتب التي نَقَلَتْ عن هذا الكتاب، أو أن الكتاب نقل عنها فتكون لدى المحقق بمثابة النسخة الثانية، فيصوِّب مستعيناً بخبرته وتمكُّنه من مادته، ويضع للتصويب رقماً ليشير في الحاشية إلى الأصل، وإن كان ثمة سقط ورأى ضرورة إثباته لإقامة النص فإنه ينقله من هذه النسخة الثانية ويضعه بين معقوفين. كما أن المحقق يُصَوِّب الأخطاء الفاضحة التي هي من قبيل التصحيف والتحريف الواضحين ولا يندفع إلى اجتهادات لا يحتملها رسم الكلمة المحرفة أو المصحفة، بل يصوِّب مستنداً إلى رسم الكلمة ذاتها، وهو لا يعتمد أبداً على الضبط الوارد في النسخة،

(١) قواعد تحقيق المخطوطات ١٤.

وإذا ظهر له أن ما أثبته الناسخ من رسم الكلمة غير جائز في سياق النص أثبت الأصل وأشار في الهامش إلى ما يحتمله السياق، وإذا وقع خرم في النص وضع نقاطاً وأثبت في الهامش ما يحتمله موضع هذا الخرم من دون أن يثبت اجتهاده في المتن وذلك للمحافظة على أصل النص. وقد يصادف كلمات تتضح له بعد جهد لعدم وضوحها في الأصل وهي لا تتعددُ فيها الآراء فإنه يقول في الحاشية: «قوله كذا غير واضح في الأصل» وذلك ليكون أميناً في عرض المخطوط كما هو. وإذا وقع سقط وكان ثمة ضرورة ماسَّة لإقامته وفق ما يقتضيه السياق وكان هذا السقط من بضع كلمات ولم يجد هذا النص فيما نقله المؤلف أو نُقِل عنه فإنه يضع الزيادة بين معقوفين كبيرين ويعزم على أن تكون تلك الزيادة مستمدة من روح النص ذاته أو من كلام المؤلف نفسه قبل السقط أو بعده.

وإن كانت النسخة لا بأس بها أو ذات قيمة كبيرة فإنه لا يتدخل في متن النص، وإنما عليه أن يثبت ما وجده ثم يكتب في الحاشية ما يريد. وعليه أن يَتَتَبَّع نصوص المخطوطة في الكتب التي نقلت عنها أو الكتب التي كانت المخطوطة تنقل عنها فيعدُّ ذلك كله بمثابة النسخة الثانية.